



هل للعلم قيود تفرضها الاخلاق؟

للدكتور هنسن أسقف درهام بانجلترا

ترجمها بتصرف الدكتور احمد زكي

(تمة)

« قيد الكاتب البحث العلمي في المقال السابق بنزود ثلاثة .
أولها الواجب الذي تفرضه الاخلاق على دارس العلم بحكم
رجولة ، وثانيها شروط تحتها حرق أولئك الذين تقع عليهم
التجربة العذبة ذاتها ، وثالثها أمور يفرضها نوع النتائج المقصود
من التجربة »

القيد الأول

أما فيما يختص بالقيد الاول فلا حاجة بنا فيه الى الافاضة
الكثيرة . ان البحث العلمي يتطلب المزاج العلمي ، وان يباشره
الباحث باخلاص للحقيقة ، وولاء مطلق لها ، واغفال تام
لصالح الباحث ونفعه الشخصي ، واستسلام صريح للعمل
المضني ، واحتمال غير شك للآلام في سبيل الطلب

ورجل العلم لا يدعى حظا من العلم أكبر مما بين يديه ،
ولا يحاول أن يفيد من جهل الجمهور بعلمه ومن ثقة اعتاد
أن يوليا العلماء ضرورة أو اختيارا ، وهو لا يستخدم سلطان
العلم فيما يحبط ويزري ، ويعمل كل هذا لأنه واجبه الواضح
الين باعتبارها انسانية ، ولأنه في علميته لا يستطيع أن يتصل
من انسانيته ، فمثل الانسان العالية هي مثل العالم
العالية ، والغايات النيلة لهذا هي عينها غايات تلك ، وموقف
الاثنين جميعا من الواجب العام هو الذي حدث عنه
غلاستون حين قال : « أنا لا أبالي ان أسأل كم في الناس من سقظ ،
وكم فيهم من حشالة هربت من الاخلاق لحاق بها ما حاق ... »

وانما انا اعتقد ان الواجب قوة حية . تصحو معنا في الصباح ،
وترقد معنا في الليل ، وتصحب كل عمل يصدر في يقظتنا عن
ذكاتنا الانساني . الواجب ظل يتبعنا اينما سرنا في مدارج الحياة ،
ولا يتركنا الا عندما تُغمض الجفن الى الابد عن نور هذه
الشمس .

ان اخضاع العلم للأخلاق بهذا المعنى مبدأ اعترفت به
الدنيا قديما وأمنت عليه انقرون . وضع أبقرات (١) حليفه
المشهور وحدد به ملك الطيب ، واحترمه الاجيال على
السواء ، فاحترمه العرب المسلمون ، واحترمه اليهود ، واحترمه
المسيحيون ، ولا يزال الى يومنا هذا أول عمل يأتيه الطيب
قبل ممارسة طبه . وهو عهد لا يختص به علم الطب وحده ،
فكل شعبة من شعب العلم لا شك تقبل المبدأ الذي عبر عنه
أبقرات بهذا النبل ، وتقبل ما يتضمنه من هيمنة الخلق على
جميع نشاط الانسان .

القيد الثاني

الى هذا الحد ليس هناك خلاف ، فليس من ينكر ان
العلم لا يستطيع تحرير رجاله باعتبارهم أناس من الشروط
الاخلاقية التي تضبط سائر الرجال والتي بدونها تضيق ثقة
الناس بالناس . ولكن عندما نتقل من رجل العلم الى طريقته
ندخل ارض الفتاوى والمحللات ، وهي دائرة يكثر فيها الجدل
ويطول الحجاج ، وهنا قد يفسد العلم ويغفل كما أسرف الدين من
قبله وغلا . فالعلم الحديث يشغل من الدنيا الحديثة مكانا
أشبه بالمكان الذي كان يشغله الدين في العصور الوسطى من
الدنيا القديمة ، ففي تلك العصور كان التفكير الانساني ينبت

(١) أبقرات طبيب أغريقي اسمه أباء الطيب عاش في القرن الخامس قبل الميلاد
وحققه المنار له بعد يزغده خرج الطب في بعض الجامعات الى الآن بألا ينسى
الطبيب للمريض سر أمها كنهه ذلك

في ارض طينتها ديبية ، وهي اليوم طيبة علمية . كان هوى الناس في الدين وكان تقديسهم لقساوسته ، فصار اليوم هواهم للعالم وتقديسهم لاساتذته . ومن طالب الدليل على ذلك وحده في الذوق العام . فعضات الاحبار لاتقرأ الا قليلا . وكنت رجال العلم المبرزين تشتري بكثرة وتطلب باهظة

وهما يتسائل المرء . وقد نزل الدين عن عرشه للعالم . أيعضخ هذا المتوج الجديد للقواية كما خضع المتوج القديم . وهل يستدرج استدراجا ليوول الى مثل مآله . ليس في التاريخ ماحو آلم من تاريخ « الافاق » في النصرانية ، ولا أزرى منه ولا أكثر تحييرا وإرباكا . وهو مع ذلك موضوع للتأمل خصب

انه ملئ بمناقضات من الجسامة بحيث لا يتصورها العقل . انحنى القديس بول على الفتوى التي تقول « دعونا نفعل الشر ليكون منه الخير » ومع هذا لم يؤثر هذا الانحاء شيئا في أفعال القسيسين ولا في نظريات الاخلاقيين . وكان كل سؤالهم « في اى الظروف والى اى حد يجوز لنا فعل الشر ليحصل منه الخير ؟ »

هل يكون من العلماء يسوعيون كما كان من أهل الدين يسوعيون ؟ وهل يكون لهؤلاء ناقد ساخر في القرن العشرين كما كان لأولئك في شخص بلايز باسكال Blaise Pascal في القرن السابع عشر ؟ كان من مبادئهم ان لا عهد لخرطيق ، ولا ذمام لزنديق ، وان الكذب والتزييف مباحان في سبيل حماية العقيدة وانتشارها ، وان التعذيب والقتل مشروعان في صالح الكنيسة . هذه ومبادئ أخرى قبلها رجال مسيحيون استحلوا بها اشنع الجرائم التي سجلها مداد واحتواها فرطاس

فهل يتطور العلم في هذه الناحية مثل ما تطور الدين ؟ هل يسيطر الاعتبار الخلقى على الطريقة العلمية ، أم هل يتغلب صالح العلم المزعوم على هذه الاعتبارات جميعا ؟ هذا هو المحور الذي يدور عليه كثير من النقاش الذي يمس التجارب العلمية الحديثة ، ومنها تشرريح الحيوان الخلقى الذي كثر الانطفيه وتطاول الحجاج في السنوات الاخيرة . قال قوم انه عمل حلال آمن عليه القانون واطمان فيه الى ان العلماء انما يأتونه خدمة المعرفة ، وقال آخرون انه عمل محرم ، تحرمه الانسانية لانه يتضمن

المساخنى ، وقال غير هؤلاء : ان تحليله وتحريمه موطن بمقدار الألم الذى يعاينه الحيوان . والحق ان المسألة لها طرفان اولهما يتعلق بالفرض الذى من اجله يحرى التشريع . وثانيهما يتعلق بالحقى الذى يشرح . اما الفرض فيجب أن يكون من الكفاية بحيث يتزل مع التضحية ويسأل هل الآلام . جميل أن تصبح « أن العلم نعلم » ، ولكن هل تقبل هذه الجملة على إطلاقها أم لابد من الحذر الشديد عند تطبيقها ؟ أى المعارف يجب أن نقصد اليه . وهل كل معرفة جديرة بالعرفان ؟ يفرق الاستاذ « وايتهد » بين الطالب يطلبه المرء في سبيل العلم . والطالب يطلبه حلا لتضحية رخيصة أخطرها بالبال الخيال السائب اللاهوى . أما فيما يتعلق بالحقى الذى يشرح ، بالحيوان الأعجم الذى ينطق ، فأمره يتوقف على النظرة التي ينظرها به الانسان . وهنا نجد العلم الحديث نفسه سلخ أعداءه في هذا الصدد بسلاح قاطع ماض . فان النتيجة الدروينية أزال الحاجر الذى وضعت الفلسفة بين الانسان والحيوان ، واعتبرت الحياة العضوية ظاهرة فردة واحدة مهما اختلفت اوضاعها وتعددت مظاهرها ، وبهذا استوى الانسان بالحيوان أو قارب ، وبهذا جاز على الانسان ما يجوز على الحيوان ، والانسان يأبى تشريع الانسان حيا ، فلا بد أن يأبى تشريع الحيوان حيا . أم هو يجيز التشريع على إطلاقه ثم يتصل منه باعتبار ان الانسان له « شخصية » تكسبه حقوقا لاتكون لغيره من الحيوانات لانعدام (الشخصية) فيها . ان الفرض مهما طاب ومهما خطر لا يبرر التجربة التي تخل بمسلك الانسان الخلقى .

حكوا فيما يحكى عن الامبراطور فريدريك الثانى انه دعا رجلين الى الغداء وأطعمهما حتى امتلأا ، وبعث بأحدهما لينام ، وبعث بالآخر ليصيد ، وفي المساء أمر فشق بطناهما ليعلم أيهما أسرع هضبا ، الذى نام فاستراح ، أم الذى ظل نهاره يحرق وراء الصيد ؟ وقضى أطباؤه بالفوز للذى نام . لا يقول أحد ان رغبة فريدريك في المعرفة لم تكن مشروعة ، ولا أن اتجاهه الى تحقيقها بالتجربة العلمية لم تكن محمودة ، ولكن الذى يدم ان التجربة لم تخضع لشروط المسلك الخلقى العام

التعبير الثالث

قرأت حديثاً مقالاً افتتاحياً في (مجلة تحسين النسل) Eugenic Review تناول فيها محررها موضوع الدعوى الحديثة في استكشاف طريقة عليية جديدة يتعين بها النسل قبل ولادته. فبعد ان تشكك الكاتب في المكتشف قال: .. ومهما يكن من الامر فلا بد ان تنهأ لأن نسمع يوماً ما بأن قد انكشفت طريقة صحيحة مؤكدة للتنبؤ بالنسل أو التحكم فيه. فان وقع هذا، وهو لا بد واقع وان تأخر يومه، فقد وقعت أكبر ثورة في تاريخ البشر، فعندئذ يتجه الناس للاحالة في الانسال اتجاهها يخل التوازن بين الذكر والانثى اختلالاً لن يختلف في نوعه وان اختلفنا في مقداره، فيصبح عدد الذكور عشرة أضعاف الاناث أو خمسة عشر أو عشرين ضعفاً، وعندئذ كيف تكون الحال! لا أجسر ان أقول، ولا يحسر ذو الخيال الرائع أن يقول. وحسبنا أن نقدر أن أول ما يذهب من مُسَلِّ الانسان عفة المرأة وحرمة الزوجية، فهل من الحكومات حكومة تنظر الى الغد فتعد لهذا الانقلاب عدته؟ لعل أقرب من ذلك أن نرجو ان يتفق البيولوجيون فيما بينهم، أن يتفقوا من الآن. على ان يحفظوا هذا السر عن الناس اذا هي تمنحنت عنه الابحاث، لانه حدث سيكون أو خم عاقبة على المجتمع بما عرف من الاحداث. بالطبع ما من سر الا افتضح على الأيام، ولكن سيكون قد انقضت مهلة قبل اقتضاحه قد تمكن أول الأمر وذوى السلطان من رفع

الحواجز واقامة السدود في وجه هذا السيل الدام فلنفرض ان ما يقوله المحرر حق، وان العلماء باتوا على مقربة من كشف هذا السر، وأن هذا السر اذا انكشف للناس فعلوا كالذي خاله الكاتب، فما يكون موقف العالم البيولوجي عندئذ وما واجبه؟ اينصرف عن ابحاثه خشية ما تجره نتائجها؟ ايقف في السبيل وقد قارب النهاية احتفاظاً بالعفاف الجنسي، ام يقول ان المنشط العلمي من حقه ان يتحلل مما قد لا يستطيع أن يتحلل منه منشط الحياة الأخرى، وأنه رجل علم فهو بمعصم من المبدأ القائل بأن الرجال مسئولون عن اعمالهم وما يصدر عنها من شر تأكد أو ترجح.

ان التقدم الحديث في العلم يتجه اتجاهات لم تكن قديماً في الحسبان. حتى أن أكثر المفكرين تفاؤلاً، وأسرعهم اجابة اذا دعا العلم، بدأوا يتشككون في تفاؤلهم الكثير، ويرتابون في فرضهم القديم، أن زيادة المعرفة لن يكون معها غير خدمة الانسانية. والسيطرة على الطبيعة لن تكون معها غير خير المجتمع. قال السير ألفريد يوخ Sir Alfred Ewing:

« إنذروا لي كدارس قديم للميكانيكا التطبيقية أن أعبر عن بعض حيرة أحس بها الآن. واناني اعتر الى متحيا مع النظارة جانباً من الطريق التخرج على موكب العلم يسير في عظم ونخامة، وأتسلى مع المندلين بركائب المخترعات تتعاقب في أمية وضخامة. الى أين يسير هذا الركب الكبير؟ وما أثره الأخير في مستقبل الاسرة الانسانية؟.. لاشك أنه يحمل للانسان هدايا تجعل حياته آملاً وأوسع وأصح وأغنى وأهنأ، تلك الهناء التي تجلبها المادة الجامدة. ولكن كثيراً ما أهداه المهندس الباحث أسى استخدامهِ وفسادهِ. وبعضه يحمل في أحشائه مآسى لم تمنحس عنها الأيام بعد. إن الانسان لم يتها بدأ أخلاقياً ليتقبل تلك المنح الكبرى »

وجملة الامر ان العلم وبال على الانسانية اذا هو اطلق من القيود الأخلاقية التي تضبط مملك الانسان بقصد اسعاده فرداً ومجتمعات

العدد الاول

من الرسالة

اجزنا طبع العدد الاول للمرة الثالثة، فمن كان في حاجة اليه فليطلبه رأساً من الادارة بالشئ المعتاد

السنة الأولى للرسالة

بهذا العدد تنتهي السنة الأولى لمجلة الرسالة. وقد كان في نيتنا ان نختمه بمهرسين أبحدين لجميع أعدادها، أحدهما للموضوعات وثانيهما للكتاب ولكن الوقت ضاق فأرجأناه الى العدد القادم وسيكون ملحقاً به منفصلاً عنه ليسهل وضعه في مكانه من المجموعة